



مقدمة:

فَبِمَا مِنْهُ إِلَّا سُلَامٌ مِنْ كُلِّ جَاهِلٍ
وَبِمَا قِلَّةُ الْأَنْصَارِ مِنْ كُلِّ عَالَمٍ

وَهَذَا أَوَانُ الصَّبَرِ إِنْ كُنْتَ حَازِمًا
عَلَى الدِّينِ فَاصْبِرْ صَبَرْ أَهْلُ الْعَزَائِمِ

فَمَنْ يَتَمَسَّكُ بِالْحَنِيفِيَّةِ الْتِي
أَتَتْنَا عَنِ الْمَعْصُومِ صَفْوَةَ آدَمَ

لَهُ أَجْرٌ خَمْسِينَ امْرًا مِنْ ذَوِي الْهُدَى
مِنَ الصَّحْبِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ الْأَكَارِمِ

فَتُخْلِفُ وَابْنَكِ وَاسْتَنْصِرْ بِرَبِّكَ رَاغِبًا
إِلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ أَرْحَمُ رَاحِمًا

لِيَنْصُرَ هَذَا الدِّينَ مِنْ بَعْدِ مَا عَفَتْ
مَعَالِمُهُ فِي الْأَرْضِ بَيْنَ الْعَوَالِمِ

وَصَلَّى عَلَى الْمَعْصُومِ وَالْأَلِّ كُلِّهِمْ
وَأَصْحَابِهِ أَهْلِ التَّقْوَى وَالْمَكَارِمِ

1 - غرباء

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بدأ الإسلامُ غريباً، وسيعودُ كما بدأً غريباً، طوبى للغرباء) [مسلم 5867]. وفي رواية: قيل: (من الغرباء قال الذين يصلحون إذا فسد الناس) [الطبراني/145]

وفي رواية: (الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدي من سنتي) [الترمذى: 2630]

ولو تأملنا هذا الحديث لوجدنا مصداقه من الواقع دليلاً من دلائل معجزات نبوة المصطفى صلى الله عليه وسلم، فالغرباء في هذا الزمان هم المؤمنون حقاً، وغرابة المؤمنين من بين سائر الناس واضحة جلية فال المسلمين غرباء من بين سائر أمم العالم وشعوبه، والصالحون منهم غرباء بين أهليهم ومجتمعهم،

فالغربة تتفاوت من مكان إلى مكان، ومن مجتمع إلى مجتمع، ومن زمان إلى زمان كذلك، فأهل الصلاح والإصلاح قد يكونوا غرباء بين المسلمين انسلخوا من إسلامهم ولم يعرفوا منه إلا اسمه، والمسلمون صالحهم وغير صالحهم غرباء في مجتمع أكثريته من غير المسلمين، وأهل الإسلام كل غرباء الآن في هذا العالم وهذا الزمان الذي تکالب فيه عليهم جميع أمم الأرض.

وليس العجيب أن يكون المسلمون غرباء بين ملل الكفر والإلحاد، إنما لا ينقضي العجب من غربة المسلمين بين أهل الإسلام، بل ويحار العقل عندما يرى أولئك المنتسبون للإسلام إخوانهم في أشد الغربة ويرونهم يقتلون وينبجون ويموتون صبراً فلا يحركون ساكناً، بل منهم من وقف في صف الكافر ضدهم.

فأيّ غربة أكثر من أن يكون عدتنا أكثر من مليار مسلم ومع ذلك فنحن أقل شأناً في نظر الأعداء من كل الملل والنحل؟! أيّ غربة أكثر من تسلط أعداء الإسلام على بلدان المسلمين، والتحكم في مصيرهم، ونهب خيرات بلدانهم، بل ومحاجمة مدنهم وقراهم، وقتل العزل من النساء والأطفال والرجال، تحت ستار من دعاوى كاذبة وتهم باطلة وقضايا مفتعلة؟! نعم حدث هذا عندما خان الأمّة بعض رجالها، وعندما أُقصي الأمين بل وحورب وطرد وربما قتل، وعندما تكلم السفيه والتافه والفاشق،

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **(إِنَّهَا سَتَّاً تِيْعَةً عَلَى النَّاسِ سُنُونٌ خَدَّاعَةٌ يُصَدِّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ وَيُكَذِّبُ فِيهَا الصَّادِقُ وَيُؤْتَمِنُ فِيهَا الْخَائِنُ وَيُخَوِّنُ فِيهَا الْأَمِينُ وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّؤْبِيْضَةُ قَيْلٌ وَمَا الرُّؤْبِيْضَةُ قَالَ السَّفَيْهُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَةِ** – وفي رواية: السفيه، وفي رواية: الفويسق – يتكلم في أمر العامة). [أحمد: 15/37].

وكان هذا عندما مات العلماء الربانيين، وأُسكنت من بقي منهم حياً وربما ألقى في غياب السجون، وصمت من كان ضعيفاً، وتكلم العلماء الجهال أصحاب المناصب وعيّاد السلاطين،

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبْقِ عالماً، اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوساً جُهَّالاً، فَسُلِّلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا). [البخاري: 100، مسلم: 2673].

2- صفات الغرباء

عندما سُئُلَ النبي صلى الله عليه وسلم: من هم يا رسول الله؟ قال: **(الَّذِينَ يُصْلِحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ)**، وفي رواية: قلنا: وما الغرباء؟ قال: **(أَنَّاسٌ صَالِحُونَ قَلِيلٌ فِي نَاسٍ سَوَءٍ كَثِيرٌ مَنْ يَعْصِيهِمْ أَكْثُرُ مِنْ يُطِيعُهُمْ)** [صحيح الترغيب: 3188].

قال ابن رجب: وهؤلاء الغرباء قسمان:

أحدهما: من يصلح نفسه عند فساد الناس، والثاني: من يصلح ما أفسد الناس، وهو أعلى القسمين وأفضلهما. إن هذه الأوصاف المذكورة للغرباء تدلنا على أنهم أهل غيرة، ودعوة، وإصلاح، ولم يكونوا صالحين يائسين، مستسلمين لواقعهم الفاسد ، وإنما سُمُّوا غرباء لقلتهم في الناس جداً فإن أكثر الناس على غير هذه الصفات، فأهل الإسلام في الناس غرباء، والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء وأهل العلم في المؤمنين غرباء، وأهل السنة – الذين يميزونها من الأهواء والبدع – غرباء، والداعون إليها الصابرون على أذى المخالفين هم أشد هؤلاء غربة، ولكن هؤلاء هم أهل الله حقاً، فلا غربة عليهم.

3- غربة تدعو للثبات

لقد بدأ الإسلام غريباً في مكة في أول الدعوة، مرفوضاً مستنكراً بين الناس، ولقد كان المسلمين الأوائل غرباء بين قومهم، مضطهدین من أقربائهم، مرفوضین من المجتمع، لقد كان أحدهم يؤذى، وتنبه حرمته ويعذب، ولا يجد من المجتمع من يدفع عنه أو ينصره، حتى اضطر المسلمين – تحت هذا الضغط الشديد – إلى أن يهاجروا إلى الحبشة ثم إلى المدينة، وما لبث المجتمع المسلم الجديد في المدينة أن يقوم حتى اتفق العرب واليهود على حربه وإبادته، واستمر الصراع بين الحق والباطل منذ فجر الدعوة حتى فتح مكة حين دخل الناس في دين الله أفواجاً، ودانت الجزيرة العربية بالإسلام، وزالت غربة الدين الأولى، وأصبح الشرك غريباً مرفوضاً مستنكراً

وما هي إلا سنوات قليلة حتى دانت الدنيا للمسلمين، فكانوا هم المعسكر الأول في العالم كله، وكان الإسلام عزيزاً في أهله،

مهيأً عند الأمم الأخرى، يخافونه ويحترمون أهله.

إن ثبات المسلمين رغم غربتهم هو الذي أهلهم لأن يسودوا ويرموا أثقال الغربة عن كاهلهم، واقرؤوا في سيرته صلى الله عليه وسلم، فما سئم وما يئس ولم يضره التعب وما أضعف عزمه عن الدعوة إلى الله عز وجل هم وهم، وكم من برسول الله صلى الله عليه وسلم وبصحابته الكرام من الابتلاء والامتحان مما ضرهم ذلك، كان منهم من تحمى الحديدة وتوضع على رأسه تفوح رائحة لحم رأسه، ومنهم من يسحب على الرمضاء، ومنهم من توضع عليه الصخرة الكبيرة، ولم يرده ذلك عن دين الله عز وجل، ومنهم من ضرب حتى اختلط أنفه بوجهه، ويحمل وهو يقول: كيف حال رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ولم يضرهم ذلك أبداً، ولئن شهد المسلمون الأوائل الشدائـ فصبروا فإنـا وبإذن الله على دربـهم سالكون ولأثرـهم مقتـون.

لكن سنة الصراع بين الخير والشر مستمرة، لحكمة يعلمها الله سبحانه وتعالى.

-4- أهل الغربة ممدوحون:

(فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْفُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَأَتَبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرْفَوْا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ) [هود: 116].

هذه الآية تدل دلالة قطعية على أنَّ الناجينَ قِلةً ، وعلى أنَّ المستقيمينَ قِلةً ، وعلى أنَّ الطائعينَ قِلةً ، فإذا وجدت نفسكَ في عصرٍ ما مع القِلة الطائعة بعيداً عن الكثرة العاصية ، مع القِلة المنية بعيداً عن الكثرة المعرضة ، مع القِلة المتَّبعة لسنة النبي عليه الصلاة والسلام بعيداً عن الكثرة التائهة والضاللة، فهذه علامة طيبة ، لأنَّ الله سبحانه وتعالى في هذه الآية وبدلالة قطعية يؤكد أنَّ أكثرَ من في الأرض مجرمين.

الآية الثانية: (وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُخْلِكُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظُّنُنَ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) [الأنعام: 116].
هناك شعور ينتاب المؤمن، يا رب كل هؤلاء الناس على خلاف الحق، أكثر هؤلاء الناس ليسوا على الطريق المستقيم، أيهما
على حق: أنا أم هم؟

لِئَلَا تَقُعُ فِي هَذَا الصِّرَاعِ، لِئَلَا تَشْعُرَ بِأَنَّكَ وَحْدَكَ فِي هَذَا الْمَجَمِعِ التَّالِئِ، لِئَلَا تُحْسِنَ أَنَّ الْحَقَّ مَعَ هُؤُلَاءِ الْأَكْثَرِيَّةِ، فَتَقُولُ: لَعَلِي عَلَى ضَلَالٍ فَأَنَا وَحْدِي، لِئَلَا تَقُعُ فِي هَذِهِ الْمَشَاعِرِ الَّتِي لَا تُرْتَاحُ لَهَا، جَاءَتِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ تَؤَكِّدُ: (فَلَوْلَا)

كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا فَلِيَالا مِمْنَ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ

بقيّة قليلة ينهون عن الفساد في الأرض، يعني ذلك: أنَّ الفساد ظهرَ وعمَّ، وأنَّ هذه القلةُ القليلة تنهي عن الفساد في الأرض.

لو عرضت أمرها على الناس لرأوها فئة تائهة.

لو أتيح لك أن تقبض مالاً كثيراً من شبهة ورفضه تُهم في عقلك.

لو أتيح أن تكون في نزهة مع أصحابك، النزهة مختلفة، ورفضت هذه النزهة، لاتهمت في عقلك.

لو جاءكَ خاطِبٌ لابتكَ من مستوىً رفيع في ماله وفي جاهه وفي عمله، ورفضتَ هذا الخاطب لرقِّه في دينه ثُمَّ بعقالك، فلئلا تقعَ في هذه المشاعر، جاءت الآيات والأحاديث الشريفة تطمئن المؤمن ليزداد ثباتاً.

فهذه القلة القليلة كريمة على الله، لأنهم أهل الإصلاح وأهل الخلافة في الأرض، اصطفاهم الله واختارهم وجعلهم أهلاً لحمل رسالته، ولا يضرهم تخذيل الناس لهم واستهزاؤهم بهم واجتماعهم عليهم، قال تعالى: (الْتَّبَلُؤُنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذْكَرِي كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَنْتَقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) [آل عمران: 186]

ورغم قلة هذه الفتنة المسلمين لهم أهل النجاة والفوز والفلاح، فعن عبد الله، قال: كنا مع النبي في قبة، فقال: أتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رِبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: «أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثَلَاثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: «أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا شَطَرَ أَهْلِ

الجنة» قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، وَمَا أَنْتُمْ فِي أَهْلِ الشَّرِّ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جَلْدِ الْثُورِ الْأَسْوَدِ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جَلْدِ الْثُورِ الْأَحْمَرِ» [متفق عليه].

(كالشعرة...) بيان لقلة المسلمين بالنسبة لغيرهم.

5- بشاره للغرباء:

عن أبي ثعلبة الخشنى قال:... قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (... فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا، الصَّبَرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَالِمِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلَكُمْ) رواه ابن ماجه والترمذى وقال حديث حسن غريب وأبو داود وزاد قيل يا رسول الله أجر خمسين رجلاً منا أو منهم. قال: (لَا يَلِ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ) قال الألبانى : صحيح لغيره فلا تحزنوا أيها الغرباء، أيها المجاهدون، أيها الصالحون المصلحون، إن الله عز وجل يعلم صعوبة غربتكم وألم تعبركم ونصبكم، ولكن لن يضيع أجركم وجهدكم، (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيغَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ) [البقرة: 143].

6- الإسلام سينتصر رغم غربته:

إن كانت غربة المؤمنين العالمين العاملين المخلصين الصادقين في هذا الزمان واضحة، إلا أن بقاءهم حقيقة نبوية ومعجزة من الله لنبيه، فعن معاوية، يقول: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم، يقول: (لَا يَزَالُ مِنْ أُمَّةٍ قَائِمَةً بِأَمْرِ اللَّهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، وَلَا مَنْ خَالَفُهُمْ، حَتَّىٰ يَأْتِيهِمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ) قال عمير: فقال مالك بن يخامر: قال معاذ: وَهُمْ بِالشَّامِ، فقال معاوية: هَذَا مَالِكٌ يَزْعُمُ أَنَّهُ سَمِعَ مُعَاذًا يَقُولُ: وَهُمْ بِالشَّامِ. [البخاري: 3641].

فأبشروا عباد الله!

أبشروا يا إخوة الإسلام! أبشرى يا أمّة محمد! مهما ادلهم ظلام الباطل، ومهما تلاطمت أمواج الضلال، ومهما اكلولح الظلام في هذه الدنيا المتخبطة بالفتن والشهوات، إلا أن وردة عطرة وريحانة فواحة تظهر في هذه الأرض، تلكم طائفة من الدعاة ومن المصلحين ومن المجاهدين، طائفة على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم حتى يلقون الله جل وعلا. ويبشرنا رسول الله في الحديث عن تميم الداري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ليبلغنَ هذا الأمرُ ما بلغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ، وَلَا يَتَرُكُ اللَّهُ بَيْتًا مَدْرِيًّا وَلَا وَبَرٍ إِلَّا دَخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ ، بَعْزٌ عَزِيزٌ ، أَوْ بَذَلٌ ذَلِيلٌ ، عَزٌّ يَعْزُ اللَّهُ بِالإِسْلَامَ ، وَذَلٌّ يَذَلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفَّارُ) [رواہ أحمد: 155، وصححه الألبانی].

وقال صلى الله عليه وسلم: (لَا يَزَالُ اللَّهُ يَغْرِسُ فِي هَذَا الدِّينِ غَرْسًا، يَسْتَعْمِلُهُمْ فِيهِ بَطَاعَتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) [رواہ ابن ماجه: 8، وصححه الألبانی].

المصادر: